

الاسلام وإشكالية العولمة اللغوية

الدكتور محمد خاقاني
جامعة أصفهان - كلية اللغات الاجنبية

هذه المقالة تتمحور على ثلاث ثنائيات:

١- التفاعل بين اللغة والفكر: نعالج في هذا القسم النظرة التقليدية حول اللغة، واعتبارها مجرد أداة للإعراب عما في الضمير، ونقارنها بالاتجاه الحديث الذي يصر على التفاعل بين اللغة والفكر، ونذكر نماذج من النصوص الاسلامية التي تنسجم مع هذا الاتجاه الحديث.

٢- ثنائية العولمة / الاقلية: ندرس فيه ايجابيات العولمة (Globalization) وسلبياتها، ونتطرق لمواقف مثقفينا بين مرحب ومتشائم ومذبذب، وصولاً الى مدرستنا: أمر بين أمرين، في حل هذه الجدلية.

٣- اللغة بين العولمة والأقلية: نعالج في هذا الفصل الاساس، إصرار القوى العظمى لفرض لغاتها وتعميمها على شعوب العالم، كذلك، نشير الى سياسة الكيل بمكيالين، التي تطبقها قوى الهيمنة والاستكبار، اذ نراهم يصبون كل اهتمامهم في الاحتفاظ بأصناف من النباتات والحيوانات المهددة بالانقراض، وفي نفس الوقت يستغلون جميع الوسائل للقضاء على لغات الشعوب وثقافتهم في مسار العولمة الثقافية واللغوية لامحاء كل ما يمكن ان يحول دون تحقيق نواياهم. وأخيراً، نستوحي مقتطفات من النصوص الاسلامية لبلورة موقف الاسلام من العولمة اللغوية أو التعددية اللغوية بغية صياغة موقف حكيم للأمة الإسلامية ازاء هذه الظاهرة العالمية، ونتبنى نظرية: «أمر بين أمرين» في حل هذه الاشكالية.

وتنطوي فيها ثنائيات أخرى كالعولمة / الاقلية، والفكر / اللغة.

هاتان الفئتان من المصطلحات المزدوجة قد اعتقلا الانسان وفكره كحائطين موازيين، والمشادة حول ما

شهد العصر الراهن انقلاباً في تفكير الغرب، لدرجة يمكن القول انه ادّى الى قلب صورة العالم أمام الانسان. نستطيع تفسير هذا الانقلاب العظيم بناء على ازدواجيات عدة كالروح / الجسم، والمعنى / الشكل،

أولاً: ثنائية الفكر / اللغة:

ثانياً: ثنائية العولمة / الأقلية:

ثالثاً: ثنائية العولمة اللغوية / التعددية اللغوية:

أولاً: ثنائية الفكر / اللغة:

النظرة السائدة حول ظاهرة «اللغة» خلال قرون متتالية، كانت تعرف اللغة بأنها مجرد أداة للتعبير عما في الضمير.

قبل التطورات والمستجدات الحديثة في علم الثقافة، كانت تنصب اهتمامات علماء الشرق والغرب نحو «الفكر» أو «الاحساس»، باعتبارهما جوهرين أساسيين في تكوين الشخصية الانسانية، واللغة كانت تابعة للفكر، ووسيلة للإعراب عنه. كانوا ينظرون الى الكلام بوصفه «عبارة» يعبر الفرد منه، ويتجاوزده للوصول الى ضمائر الآخرين.

الصفحة الاولى التي تلقتها هذه النظرة تمت بيد الكاتب والأديب الإنكليزي في القرن السابع عشر «روبرت سوث»، حيث قبل ان اللغة أداة، ولكن لم يقبل بأنها دائماً تستخدم للتعبير عما في الضمير، بل أحيانا يستغلها الانسان لاختفاء ما في الضمير. وقد كشف عن مجالات كثيرة يلعب فيها الشخص بالالفاظ والمفردات، ليخبي نواياه، ويلبس ظاهره بما لا ينسجم مع باطنه.

والتطور الثاني حصل مع «ميشل فوكو»، حيث تغيرت للمرة النظرة الأداتية الى اللغة، «واخذت اللغة تفرض نفسها على الانسان، باعتبارها جزءاً من نظام الكون ذا وجود عيني وأصيل... أصبح الكلام اجراء من اجراءات الحقيقة، وأصبحت اللغة تدرك في كينونتها بوصفها موطن الوجود، اذ بها يسمي كل شيء باسمه الخاص، ويكتب هويته وأحديته»^(١).

التأكيد على التلازم والعلاقة المتقابلة بين اللغة والفكر، جعل «هيدغر» يصوغ نظرية: «التطابق بين اللغة والفلسفة» في كتابه: «حول الفلسفة والشعر». وراجت

هو الاصيل والاساس منهما وما هو الفرع والهامش. قسّمت الفكر الغربي الى معسكرين متخصصين القى كل واحد منهما بظلاله في برهة من التاريخ.

ربما يناقش في اعتبار تاريخ الفكر الغربي منقسماً الى هذين المعسكرين المتخصصين. لان التيارات الفكرية متنوعة جداً، من المستحيل في بدء الامر تقسيمها الى كتلتين. لكن هذه القسمة - رغم ذلك - ضرورية.

قبل الثورة العظمى التي جرى الحديث عنها، كانت الغلبة في فترة غير محددة البداية (والنهاية) للعنصر الاول: الروح (ومن مصاديقها: الفكر) هي التي تسيطر على الآخر الاقل قيمة، أي: الجسم والشكل (ومن مصاديقها: اللغة). العنصر الاول كحقيقة غير مرئية وغير قابلة للتحديد، يحرك العنصر الثاني من وراء الستار، ويضفي عليه المعنى. والطرف السافل مقيد يتحقق ويتعين بفضل العامل الاول.

هذه الازدواجية الحاضرة بقوة طوال تاريخ فلسفة الغرب، يعبر عنها بثنائية الفيزياء / الميتافيزيقا في رسم العلاقة بين الله والانسان. الحقيقة الماورائية تخلق الطبيعة وتديرها، والطبيعة كتاب تستمد الفاظه معانيها من الله.

هذه العلاقة تظهر بشكل آخر بين المؤلف والنص، حيث أن المؤلف يرى نفسه صاحب القرار فيما يكتبه، وكما أن الله يحول مفردات كتاب العالم، المؤلف يهيمن ارادته على النص. هذا التعامل يمكن الاحساس به لا في الكتابة والكلام فقط، بل أيضاً في أية علاقة تربط الانسان بالعالم (وان كان للإسلام موقف آخر اكثر تعقيداً وتشابكاً في رسم هذه الصلة بين الانسان والعالم)^(١).

نسعى في هذا المقال الى معالجة موقف الاسلام من ثنائية: العولمة اللغوية / التعددية اللغوية، من خلال دراسة ثلاثة محاور، هي:

وكلماتنا. تصرّ النزعة التأويلية على أن الفكر واللغة كليهما من نوع «النص». فالكلام الكتابي نص والكلام الشفهي نص. والعمل الميداني نص، إذ إن جميعها حصيلة أنظمة علاقاتية تعمل على خلق وإرسال نداءات محددة.

في هذه الأجواء، العالم الألسني الذي يعالج مسؤولية اللغة في المجتمع البشري، لا يمكنه إنكار علاقة اللغة بالواقع. بحجة أن التجربة خارجة عن نطاق اللغة، إذ إن في أية لغة آليات تسمح للمتكلم أن يدخل عن طريقها في عالم المحسوسات والمختيلات^(٦).

الأمر الذي يطوي هذه الثنائية ويمزج اللغة بالفكر والفكر باللغة، هو أن اللغة وراء ألفاظها الاعتبارية المختلفة باختلاف اللغات جوهر مشترك يتصل بذات الفكر، بينهما عملية أخذ وعطاء مستمرة. فالفكر يظهر في قالب اللغة، واللغة تطلق العنان لمزيد من الفكر^(٧).

هذه نظرة إجمالية عالجنها عن كسر الجليد بين اللغة والفكر والتلاحم بينهما في نمط التفكير الفلسفي الغربي، وانتماء بعض المثقفين الشرقيين المستلهمين من المدارس الغربية.

ندرس الآن موضوع ثنائية: الفكر / اللغة من منطلق القرآن والنصوص الإسلامية.

ثنائية الفكر/ اللغة في فضاء القرآن

بعض التعابير القرآنية التي تركز على علاقة طبيعية تلازمية بين اللغة والفكر، تفوق مجرد كنايات، وتصرّح بطي هذه الثنائية، منها:

١- «ان القرآن يسمى كل شيء في عالم الكون: «آية». الآيات التكوينية تغطي أرجاء العالم: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي السماء، أفلا تبصرون﴾^(٨). إلى جانب هذا، تطلق مفردة: «الآية» على كل جملة أو قطعة من السور القرآنية. إن تأليف القرآن من «آيات الله» وتأليف كل مظاهر الوجود أيضاً من «آيات الله» تشعر بأن «القرآن

مرة أخرى فكرة علاقة متينة بين «النحو العقلي» و «النحو اللغوي»، والتي زاولها «أبو حيان التوحيدي» في كتابه: «المقابسات» في نزاعه مع «مسكويه»^(٩).

في انتماء التلاحم بين اللغة والفكر، تعتبر اللغة متأصلة في جوهر الكيان البشري وعين حقيقته نوعاً ما. فهي لاتتلخص في ظاهرة صوتية للإشارة إلى الحاجات الجسمية والنفسية، وليست مجرد اشارات باردة وبلا روح. يعرّف الانسان مرة ثانية «بالحيوان الناطق»، ولكن النطق ليس هذه المرة اشارة للعقل والادراك المجرد، وانما الوجه الآخر له، يتفاعل معه في مسار التحقيق والتوليد. الانسان حيوان يفهم منك ويفهمك عن طريق النطق، والا فهو أعجمي وأخرس في تعابير معظم اللغات^(١٠).

هذا الافق الحديث، يبرر ويفسر عملية صرف ملايين من الدولارات من قبل الدول الكبيرة، لتوسيع دائرة هيمنة لغاتها، واستفحالها للقضاء على اللغات المعادية وتضييق اللغات المتنافسة.

كل جهة ترى في التمترس بلغتها الأم دفاعاً عن كيانها في حرب الوجود واللاوجود، وتجعل المحافظة عليها في صدر سلم اولوياتها الاستراتيجية.

قال «هيغل» في بداية القرن التاسع عشر: «إن الفلسفة يجب أن تتكلم باللغة الألمانية». وهنا، في لبنان، يدعو الدكتور «سامي أدهم» الفلسفة المعاصرة إلى التكلم بالعربية^(١١).

في هذه الفترة، تتكاثف الدراسات اللغوية، بحجة أنها عامل رئيسي في بلورة الافكار والنزعات، لدرجة أن «جان لاكان» يفترض الضمير المختبئ (In) مقولة السنّة (Linguistic). ويتساءل البعض عما إذا كان يمكن التفكير بدون لغة، وهل هناك مناطق في عالم الفكر، لاحضور للغة فيها؟

هذا، وذهب البعض إلى استنكار الحقيقة بوصفها كياناً متحققاً تقترب منه، بل هي تتولد عبر خطاباتنا

فرصة فردية للتواصل والفهم المتبادل بين الناس في مختلف ثقافات المعمورة وتشجع على اختلاط الثقافات... ويعثر «موران» على الأمل في الانفتاح على مساهمة الحضارات الإسلامية في العلاقة التي أقامتها بين الذات وبين العقل، بين الروح وبين الجسم. وهو ما أهملته الحضارة الصناعية الانتاجية التي حصرت بحثها في الفعالية^(١٢).

والعولمة مستوى الاقتصاد والمال إلى سائر المجالات الثقافية والسياسية والايديولوجية، ولذلك يعرفها «أسماعيل صبري عبد الله» بأنها: «التداخل الواضح في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك، دون اعتداء بالحدود السياسية أو الانتماء إلى وطن محدود أو لدولة معينة ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية»^(١٣).

أما موقف المثقفين في الوطن الإسلامي إزاء ظاهرة العولمة، فقد توزع بين مرحب ومتشائم وحائر مذبذب يميل تارة إلى هنا وأخرى إلى هناك.

أ- موقف الترحيب:

فالمرحب بها استقبلها بكليتها، وشرط عدم اللجوء إلى تطبيقها في مجال دون مجال آخر، واستنكر مقولة أقلمة الثقافة إلى جانب عولمة السياسة والاقتصاد، «إذ ليس صحيحاً أن ثقافات الأمم تظهر ظهوراً مستقلاً، فالحضارة الإسلامية ما كانت ممكنة التصور لولا الثقافات الفرنسية والبيزنطية واليونانية. ولا شك بأن هناك عناصر ذاتية أو محلية في كل ثقافة، ولكن الباقي هو المشترك أو العالمي. والنظام العالمي ليس في الاقتصاد والتبادل التجاري وحسب، بل وفي الثقافة وتبادل الأفكار أيضاً. وليس من الممكن أن تتجدد الثقافة المحيطة بهويتنا الخاصة إلا بالانفتاح على العالم وثقافته. فالهوية المنفتحة هي الباقية والمتجددة. أما الانعزال فأكبر أعداء الهوية»^(١٤).

المقروء» أو «القرآن المكتوب» هو نسخة طبق الأصل عن نظام الكون الممتد من ذروة العرش إلى حضيض الفرش. وفي هذا إشارة لطيفة إلى توحيد ثنائية الفكر / اللغة.

٢ - يصف القرآن النبي عيسى عليه السلام «بكلمة الله»؛ مما يعني أن العلاقة بين «الحقيقة الوجودية» و «الحقيقة اللغوية» علاقة ذاتية ورسنية.

٣ - ورد في القرآن: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٩). إن لفظة «الاسماء» مشتركة في قاموس القرآن بين الأكوام اللغوية والحقائق العينية. ومما يقوي هذه الفكرة، أن القرآن يقول: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٠)، حيث يرجع فيها الضمير «هم» (المخصص لذوي العقول) إلى «الاسماء» وإضافة «اسماء» إلى «هؤلاء» تدل على أن موضوع «الاسماء» هو الحقائق العاقلة ولا الألفاظ المجعولة والاعتبارية.

ثانياً:- ثنائية العولمة / الاقلية

اتخذت العولمة (Globalization) اشكالاً مختلفة، ومرت بمراحل متتالية، ليس فقط من حيث كثافة العلاقات ووسائل الاتصالات، لكنها مرت أيضاً من حيث الكيف بمراحل مختلفة.

في المرحلة الممتدة من الثورة الصناعية في أوائل القرن التاسع عشر، مروراً بالحرب العالمية الثانية، وصولاً إلى منتصف القرن العشرين. واتخذت العولمة في هذه المراحل شكلاً بسيطاً، وتجلى هذا الشكل في تقسيم العالم إلى المناطق المصنعة والمناطق التي لم تدخل بعد في الثورة الصناعية^(١١).

كنتيجة للحرب العالمية الثانية، دخلت دول الاطراف في نظام الثورة الصناعية والتحديث للدولة والمجتمع إلى حد ما، لكن من دون ديمقراطية في معظم الاحيان. العولمة كما يقول المفكر الفرنسي «أدغار موران» تمثل

ب - موقف التشاؤم:

أما الآراء المتشائمة عن العولمة، فتذهب إلى أن الرأى والكيل بمكيالين هما ثمن ادعاءات العالمية. «وهي عالمية (حسب رأي هنتنغتون) تروج للديمقراطية، لكن ليس إذ أوصلت إسلاميين إلى السلطة. وتطبق عضات منع انتشار أسلحة الدمار الشامل على إيران والعراق، لا على إسرائيل، وتعتبر التجارة اكسير النمو الاقتصادي، لكنها تستثني منها الزراعة، وتثير قضية حقوق الإنسان مع الصين، لا مع أقطار أمريكا، وترد العدوان على الكويتيين مالكي النفط بقوة هائلة، ولا ترد بقوة مماثلة على عدوان يستهدف البوسنيين الذين لا يملكون نفطاً»^(١٥). حتى المفكر الفرنسي «ادغار موران» المنتمي إلى العالمية يعتقد بأن لها جانباً مريباً خصوصاً في الجانب الثقافي، إذ قد يتم تجاهل بعض الثقافات، وحتى ضربها باتجاه قيام تجانس للهويات.

وهل تتحقق العولمة في الساحة الثقافية؟ الإجابة سلبية عند «الجابري». في رأيه، ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام، وإنما وجدت وتوجد ثقافات متعددة ومتنوعة. النوايا الخبيثة التي تحتشد قوى الغطرسة وسلطات الاستكبار للدفاع عن العولمة واضحة في اجراءاتهم القمعية ونشاطاتهم السياسية والعسكرية التي تظهر أحياناً في أنماط من الإبادة الجماعية لبعض الاقوام المغضوب عليها وتطويقهم للبعض الآخر:

«ظاهرة العولمة (أي سيطرة تحالف الشركات متعددة الجنسيات والقوة التكنولوجية العالمية على العالم) باتت واقعاً معيشاً ويومياً. وأن هذه الظاهرة لها أدمة أمريكية واضحة... وهذا ما يدفع بالعديد من الأمريكيين إلى الحديث الآن عن «أمركة العالم» أو «أمريكا/العالم»... لكن، لابد من التذكير بالنظرية الأخرى التي تقول: أن أمريكا هي التي ستذوب في العالم بفعل العولمة، ويقول أصحاب هذا الرأي: أن

انهيار مفهوم «الدولة - الأمة» تحت ضربات العولمة الاقتصادية، سيؤدي إلى تجزئة الولايات المتحدة إلى أكثر من عشرين دولة مستقلة»^(١٦).

إن الاتجاه المتشائم إزاء العولمة يعتبرها «اسلوب الغرب، وعملية انتشارها في جوهرها عملية «تغريب»... إنها جزء عضوي وأساسي من طبيعة الرأسمالية الدولية... إن ما يتعولم مجتمع عالمي مزدوج «شمال اجتماعي» متجانس في ترفه واستكباره يمتلك العالم ويحكمه، و«جنوب اجتماعي» متجانس في مكابذته البؤس والقهر، وعلى هذا الأساس تجسد العولمة انقسام العالم أكثر من أي وقت مضى إلى عالمين متضادين متناقضين ومتصارعين، عالم غني وعالم فقير، عالم المراكز المتقدمة والأطراف أو دول المحيط المتخلفة»^(١٧).

في هذا الجو المغمم بالتشاؤم، تقبل العولمة باعتبارها أرقى إنجاز عمراني في تاريخ البشرية، «لكن لو لم يفقد الأمن والامان في ظلها لكانت استقبلت بطريقة أخرى من قبل الشعوب. ولو لم يكن النفاق الرأسمالي ديدنها ومعدنها لمُجِدت ثقافتها وحضارتها وعقيدتها الفكرية. لكنها خواء من الناحية الانسانية، ومجرد صدئ تكنولوجي متطور جداً لأخلاق وثقافة انكشارية (بالمقارنة مع ثقافة القرن المنصرم). ومع ذلك نقول ان العولمة عمياء. وإنها سيرة الطوطم المعدني الذي تعبد، وإنها قد تحفر لصانعيها قبورهم بأن تفتح من حيث لا تدري، ومن حيث لا تبغي أبواباً واسعة أمام اتحاد «الكادحين تحت» من كل الشعوب في مواجهة «الرازيحين فوق». نعم، قد تتجلى رسالتها الكبرى في أن تفعل ذلك في يوم من الأيام»^(١٨).

ج - موقف التذبذب:

لكن رأياً آخر أقل تشاؤماً يؤكد على ضرورة الفصل بين «العولمة» و «العالمية»:

إن مدرسة «أمر بين أمرين» (المختلفة تماماً عن اتجاه التذبذب والتفتت في استقبال العولمة في بعض مجالاتها ورفض المجالات الأخرى) ترى في العالمية أرضية لازمة لفتح الحوار والتفاعل بين الشعوب، ولتحقيق الدعوة القرآنية إلى: «كلمة سواء» وتجد في العولمة أساساً دينياً يقوم على فكرة إن الناس كلهم أبناء أسرة واحدة خلقت من ذكر وأنثى، وقدر لها أن تكون ذات مصير مشترك، فلا بد من عولمة الخطاب الموجه إلى الناس.

ولكن، شرط أن تنطوي في الطرف الآخر للمعادلة: أي: «الأقليم» بمعنى أن لا تلغي خصوصيات الأقوام والثقافات والحضارات. فالدعوة الإسلامية العالمية التي توجت خطاباتها بـ «يا أيها الناس» ليس فقط تعترف بهذه الخصوصيات، بل تراها باعثة على الفكر^(٢١)، حيث قال تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾^(٢٢). وقال: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾^(٢٣).

ثالثاً: اللغة بين العولمة والأقلية

انتهينا في المحور الأول إلى طَيِّ ثنائية الفكر / اللغة، واعتبارها صفحتين لورقة واحدة لا يمكن قص أحدهما إلا بقص الطرف الثاني. وكما أن اللغة آية للفكر، فالفكر أيضاً ناتج عن اللغة والكلام، ولا يمكن أن يتحقق التفكير دون لغة.

إن أهمية اللغة وكونها إطاراً لبلورة الأفكار والثقافات نقلت في العهد الراهن ازدواجية العولمة والخصخصة إلى دائرة اللغة، مما يتطلب دراسات معمقة حول ظاهرة العولمة اللغوية.

الظاهرة التي نشهدها اليوم، هي أن الغطرسة العالمية المتمثلة بالإدارة الأمريكية تحاول جعل اللغة الإنكليزية عبر الإنترنت والمعلوماتية والاتصالات

«العولمة التي يجري الحديث عنها الآن: نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد... وهي ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، بل هي أيضاً بالدرجة الأولى أيديولوجيا تعكس إدارة الهيمنة على العالم... العولمة (Globalisation) إرادة للهيمنة. وبالتالي قمع وإقصاء للخصوصي. أما العالمية (Universalism) فهي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي. العولمة احتواء للعالم. والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني»^(١٩).

فالعالمية تفتح على العالم، واحتفاظ بالاختلاف الثقافي وبالاختلاف الأيديولوجي، والعولمة نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع التفتت والتشتت، ليربط الناس بعالم اللاوطن واللامة واللا دولة، أو يعزفهم في أتون الحرب الأهلية.

د - مدرسة «أمر بين أمرين»:

في ظل النزعات المتناقضة التي تتراوح بين النزوع نحو العولمة وتطبيقها في جميع المجالات الاجتماعية والإقتصادية والثقافية والسياسية، وبين الإصرار على أقلية القضايا والتركيز على القيم المحلية والتعصب للرسوم الإقليمية، نميل إلى مقولة: «أمر بين أمرين»^(٢٠).

إن هذه المدرسة التي خضت في طياتها طيلة سنوات، ورسمت بعون الله تعالى معالمها وكشفت عن ملابساتها وعالجت إشكالياتها وغوامضها وبلورت صياغتها في كتابي «أمر بين أمرين: ثنائيات الإنسان والكون بمنطق التأويل والتفسير»، تنطلق من عنوان مأخوذ من رواية الامام «جعفر الصادق» عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين»، فهو عنوان عريض ومفتاح رئيس، يصلح أن يكون أساساً للتعامل مع كثير من الأزمات الثقافية والجدليات الفكرية التي تتعرض لها اليوم.

إنساني لا تقل أهمية عن الأفاعي والحشرات والحيوانات ذات الخلية الواحدة!

ثالثاً: المنطق العلمي الذي يخضع أمام آخر المستجدات العلمية الحديثة في «الألسنية»، ويقبل تشابك اللغة بالفكر وعدم إمكانية الفصل بينهما، هو الذي يفرض علينا ضرورة قبول التنوع في مسار اللغة، إذ لا شك أن الفكر متنوع. والغرب المتحضر الذي يرفض الاستبداد في الفكر، ويصرّ على الاختلاف والتنوع والحرية الفكرية، يجب أن لا يتناسى أحد اللوازم الأساسية للتنوع الفكري، ألا وهو التنوع اللغوي، لأنه بات بديهياً أن اللغات المتنوعة تختزل في طياتها مضامين متنوعة، وتراثاً متنوعاً لا قيمة للبشر إلا بالحفاظ عليه والاستلهاً منه.

أخيراً: أعتقد أن ثقافتنا الإسلامية تلهمنا ضرورة الجمع بين العولمة والأقلمة في جميع المجالات، ومنها: المجال اللغوي. فمن جانب، نستوحي من القرآن ودعوته إلى «كلمة سواء»، وأفهم منها ضرورة تواجد لغة مشتركة لتطبيق هذا الحوار والدعوة العالمية. ومن جانب آخر، أرثني أن الآية الشريفة: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾، ترسخ أهمية التعددية التكوينية والاختلاف الماهوي بين مظاهر الوجود، وتذكر «العلماء» بها، وتثبت مقولتنا العرفانية القائمة على وحدة الحق تعالى مع كثرة مخلوقاته وتنوع مظاهره واختلاف تجلياته.

هكذا نطوي ثنائية: العولمة / الأقلية، ونولجها في ثنائية: الوحدة / الكثرة، التي تنطوي في الباري تعالى ومظاهره التي لا تعد ولا تحصى.

الهوامش

- ١- لمزيد من الإيضاح راجع: مقالة نقلتها من الفارسية إلى العربية بعنوان: «القرآن والنظريات السيميائية، نشرت في مجلة: الثقافة الإسلامية، العدد ٨٦، دمشق، تشرين ٢/ ٢٠٠٠.
- ٢- علي حرب، نقد الحقيقة، صص ١٠٥-١١٦.

العالمية رمزاً للعبور إلى عالم العلم والتكنولوجيا. يترث أصحاب الثقافات الأخرى عند ظاهرة «العولمة اللغوية»، يتحIRON كيف يمكنهم الخروج من هذا المأزق المتأزم بين الأخذ بنظام لغوي موحد، يضعهم في أجواء آخر المستجدات العلمية، ويمنحهم تأشيرة الدخول في مسارات اللعبة الدولية، أو يقفون بكل صلابة وأنفة وشموخ، أمام هذا السيل الجارف الذي يبلع بكل جشع وبسرعة تفوق حد التصور كل معالم تراثهم وركائز كيانه ووجودهم. في هذه الحرب المدمرة، يزداد كل يوم عدد اللغات التي انقرضت وتقرض لتلحق بأرشف الدفائن الأثرية. أعتقد أن الخروج من هذا المأزق يتطلب حكمة متينة ورصينة لمعالجة طرفي ثنائية العولمة اللغوية والتعددية اللغوية، ولا بد هنا من معالجة قضايا ذات أهمية جسيمة.

محاوّر لحل جدلية العولمة اللغوية والتعددية اللغوية أولاً: لايجدي التركز إلى دعاة العولمة اللغوية، والمطالبة بعدولهم عن إبادة اللغات الضعيفة. لأن المبدأ الذي ينطلقون منه ويعتبرونه أساساً منطقياً ومنهجاً سليماً هو مبدأ التنازع من أجل البقاء واختيار الأصلح والأقوى كسنة طبيعية.

ثانياً: يجب ممارسة أساليب حكيمة لتوجيه سؤال هام إلى دعاة العولمة، وخاصة في أجواء نظرية حوار الحضارات: نحن نتساءل: كيف يبرر تخصيص نفقات باهضة وأبحاث جامعية وأكاديمية ضخمة للاحتفاظ بأصناف الحيوانات والنباتات المهددة بالزوال، وتأسيس بنوك اختصاصية لجمع بذور هذه النباتات، ومحاولة إحياء الأنواع البائدة بتفعيل مادة DNA المتبقية من أشلائها، وفي نفس الوقت، عدم الاهتمام بمشكلة تضائل وتلاشي كثير من اللغات في المجتمع البشري، أو التخطيط الخفي لازالتها التدريجية، مع العلم بأن اللغة - أية كانت - هي مرآة صافية تعكس واقع مجتمع

المراجع والمصادر

- ١- أدهم، د. سامي، فلسفة اللغة، الموسوعة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣.
- ٢- أمين، د. سمير، ملحق الكفاح العربي، ١٩٩٩ / ١ / ٤.
- ٣- حرب، د. علي، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.
- ٤- خاقاني (المؤلف)، د. محمد، أمربين أمربين، دار الهادي، لبنان، ١٩٩٩.
- ٥- خاقاني (المؤلف)، د. محمد، مقارنة السنية بين تشومسكي وسيبويه، مجلة لغة وعلوم القرآن، العدد ٣، جامعة شمران، الأهواز، إيران، ٢٠٠١.
- ٦- درفشيان، جاك، من سيذوب في الآخر؟... السفير، ١٩٩٨ / ١ / ٢٨.
- ٧- السيد، د. رضوان، العولمة الملعونة باسم الهوية الوطنية والدينية، السفير، ١٩٩٧ / ٢ / ٢٥.
- ٨- الشياح، د. محمد خالد، العولمة والثقافة الوطنية، مجلة راية مؤتة، العدد ٢، تشرين أول ٢٠٠٠.
- ٩- طرابلسي، د. فواز، نقد مقالة: الغرب فريداً، لا كونياً، لصامونيل هنتنغتون، السفير، ١٩٩٧ / ١ / ٣١.
- ١٠- عبيد الله، د. محمد، العولمة والهوية الثقافية، مجلة راية مؤتة، العدد ٢، تشرين أول ٢٠٠٠.
- ١١- عثمان، د. عفيف، الفكر الغربي امام العولمة، السفير، ١٩٩٨ / ١ / ٢٨.
- ١٢- فاخوري، د. عادل، اللسانية التوليدية والتحويلية، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨.
- ١٣- قاسم، د. جميل، نقد كتاب نظرية العقل لجورج طرابيشي، السفير، ١٩٩٧ / ٦ / ٢٧.
- ١٤- قيطوري، د. عامر، القرآن والنظريات السيمانية، نقله الى العربية، د. محمد خاقاني (المؤلف)، مجلة: الثقافة الإسلامية، العدد ٨٦، دمشق، تشرين ٢٠٠٠ / ٢.
- ١٥- محمد، ماهاتير «رئيس الوزراء الماليزي، العولمة مع الأولوية الإنسانية، نقلا عن جريدة «اطلاعات» الإيرانية، ١٩٩٩ / ٣ / ٢٠.
- ١٥- نور الدين، د. عصام، تدريس اللغة العربية في المغربيات أولوية قومية، السفير، ١٩٩٨ / ٦ / ٣.
- ٣- جميل قاسم، نقد كتاب نظرية العقل لجورج طرابيشي، السفير، ١٩٩٧ / ٦ / ٢٧.
- ٤- راجع: د. عصام نور الدين، تدريس اللغة العربية في المغربيات أولوية قومية، السفير، ١٩٩٨ / ٦ / ٣.
- ٥- د. سامي أدهم، فلسفة اللغة، ٩.
- ٦- راجع: د. عادل فاخوري، اللسانية التوليدية والتحويلية، ٨٣.
- ٧- راجع: مقالتي، بعنوان: مقارنة السنية بين تشومسكي وسيبويه، مجلة لغة وعلوم القرآن، العدد ٣، جامعة شمران، الأهواز، إيران؛ وأيضاً مقالاً ترجمته الى العربية بعنوان: القرآن والنظريات السيمانية (المذكورة سابقاً).
- ٨- الذاريات: ٢٠ - ٢١.
- ٩- الاعراف: ١٨٠.
- ١٠- البقرة: ٣١.
- ١١- راجع: سمير أمين، ملحق الكفاح العربي، ١٩٩٩ / ١ / ٤.
- ١٢- عفيف عثمان، الفكر الغربي امام العولمة، السفير، ١٩٩٨ / ١ / ٢٨.
- ١٣- د. محمد عبيد الله العولمة الثقافية، مجلة راية مؤتة، العدد ٢، تشرين أول ٢٠٠٠.
- ١٤- رضوان السيد، العولمة الملعونة باسم الهوية الوطنية والدينية، السفير، ١٩٩٧ / ٢ / ٢٥.
- ١٥- فواز طرابلسي، نقد مقالة: الغرب فريداً، لا كونياً، لصامونيل هنتنغتون، السفير، ١٩٩٧ / ١ / ٣١.
- ١٦- جاكسي درفشيان، من سيذوب في الآخر؟... السفير، ١٩٩٨ / ١ / ٢٨.
- ١٧- د. محمد خالد الشياح، العولمة والثقافة الوطنية، مجلة راية مؤتة، العدد ٢، تشرين أول ٢٠٠٠.
- ١٨- د. فؤاد مرعي - في ما يتعدى النقد والتفكيك - السفير - ٩٨ / ٥ / ٢٦.
- ١٩- محمد عابد الجابري (الباحث المغربي) - ندوة: العرب والعولمة (في بيروت) - السفير - ٩٧ / ١٢ / ٢٤.
- ٢٠- راجع: كتابنا: «أمربين أمربين».
- ٢١- في هذا الاتجاه، يحذر «ماهاتير محمد» «رئيس الوزراء الماليزي من: «عدم الاستسلام امام العولمة المطلقة العنان، التي ينوون فرضها على كل أرجاء المعمورة، وتعديلها بالاصرار على عولمة الاخلاق والقيم والعلم، الى جانب العولمة الاقتصادية والسياسية، لكي لايفضل الحجر على البشر»، ماهاتير محمد، في مؤتمر دولي أقيم في كوالالمبور، نقلا عن جريدة «اطلاعات» الإيرانية، ٢٠٠٢ / ٣ / ١.
- ٢٢- الروم: ٢٢.
- ٢٣- الحجرات: ١٣.

* * *